يسوع امام آلامه

انتهت حياة يسوع التبشيرية بطريقة مأساوية واستطاع رؤساء الكهنة والفريسيون ان يسلّموه الى السلطة الرومانية ؛ اقتاد الجند يسوع الى المحاكمة وصدر الأمر بصلبه . كيف تصرّف يسوع امام الآلام التي فُرضت عليه ؟

لم يتفاجأ يسوع حين وصلت ساعة الآلام لأنه استعدّ لمواجهتها إثناء حياته التبشيرية لذلك تبدو مسيرته من الجليل الى اورشليم وكأنها متوجّهة نحو الصليب ، فالأنبياء والمُرسلون يجب ان يُقتلوا في اورشليم . اجتمع الرب مع تلاميذه ليلة الآلام وشرح لهم معنى ذبيحة الصليب في إطار عشاء فصحي ؛ بعد العشاء صلّى يسوع الى الآب ، في بستان جتسيماني ، فاجتاز اختباراً صعباً قبل ان يُلقي الجند القبض عليه ويصلبوه في اليوم التالي .

هذا هو الإطار العام الذي يُساعدنا على فهم موقف يسوع امام آلامه [١] ؛ سنحاول التعمّق في فهم مواجهة يسوع لآلامه من خلال التصميم التالي :

اولاً : استعداد يسوع لمواجهة آلامه في حياته العلنية .

ثانياً : يسوع يشرح في العشاء الفصحي معنى موته الذبائحي .

ثالثاً : يسوع يواجه الساعة . الكأس في بستان جتسيماني .

رابعاً : كلمات يسوع الأخيرة على الصليب .

أولاً : استعداد يسوع لمواجهة آلامه في حياته التبشيرية

حقّقت بداية حياة يسوع التبشيرية نجاحاً باهراً وجمع حوله جموعاً غفيرة ، فاحتشد هؤلاء وراءه منذهلين من الأحداث الغريبة التي يشاهدونها [٢] والأقوال الجديدة التي يسمعونها [٣]. ولكن سرعان ما تحرّكت السلطات اليهودية لمواجهة هذه الظاهرة الشعبية وبدأ اليهود يجادلون يسوع ويناقشونه حول تصرّفاته وممارسات تلاميذه التي تناقض الشريعة [٤] .

---

1 – X. LÉON-DUFOUR, **Face à la mort Jésus et Paul**, Parole de Dieu, Seuil, 1979. J. GUILLET, **Jésus devant sa vie et devant sa mort,** Aubier,1971. H. SCHURMANN, **Comment Jésus a-t-il vécu sa mort ?,** Cerf, 1977.

٢ – مر ١ : ٣٢ – ٣٣ .

٣ – مت ٧ : ٢٨ .

٤ – مر ٢ : ١ – ٣ : ٦ .

لا يهتم يسوع بتطبيق أحكام الشريعة ، بل هو يحمل تعليماً جديداً ويقود الشريعة الى كمالها [٥] ؛ أضحت النتيجة واضحة : صدر قرار بقتل يسوع [٦] وشاء هيرودس ايضاً ان يقتل يسوع بسبب النزاعات السياسية التي يحرّكها بين الشعب [٧] .

يمكننا ان نعتبر ان الآلام كانت حاضرة دوماً في رسالة يسوع التبشيرية ، فالإنباءات الثلاثة بالآلام [٨] تُوضح ان القيامة ستلي الآلام وهذا يعني ان يسوع كان مُقتنعاً أنّ الآلام تنتظره ، ولكنه سيتمجّد بعد الموت ولن تكون الآلام خاتمة او نهاية لحياته بل هو يمرّ بالموت على الصليب ليصل الى الحياة [٩] .

لا يحب يسوع الموت ولا يرغب في الآلام ، ولكنه يريد ان يتمّم ارادة الله فيخلّص البشر ويوجّههم الى الآب ؛ هذه الأمانة لمشيئة الله دفعت اليهود الى الحكم عليه بالموت . بعبارة أخرى نقول : لو تراجع يسوع عن الرسالة الموكولة اليه ، لما انتهت حياته بآلام الصليب ؛ وبالفعل حاول الشيطان ، بعد العماد ، ان يُبعد يسوع عن مهمته ولكنه فشل في تجاربه [١٠].

ان موت يسوع هو دوماً في يد الآب وحاول اليهود مراراً الإمساك بيسوع ليسبّقوا وقت آلامه لكنّهم لم يستطيعوا لأن ساعته لم تأت بعد [١١]. لا يمكن ان يموت يسوع في الجليل لأن مصيره يُشبه مصير الأنبياء الذين قُتلوا في اورشليم ، لذلك خاطب يسوع اورشليم قائلاً : " يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المُرسلين اليها " [١٢] ؛ دخل يسوع اورشليم وسط هتاف الشعب ولكنّ الموت القريب ينتظره هناك .

---

٥ – مت ٥ : ١٧ .

٦ – يو ١١ : ٥٣ .

٧ – لو ١٣ : ٣١ .

٨ – مر ٨ : ٣١ ؛ ٩ : ٣٠ – ٣٢ ؛ ١٠ : ٣٢ – ٣٤ .

٩ – يو ٥ : ٢٤ .

١٠ – لو ٤ : ١٣ .

١١ – يو ٨ : ٢٠ .

١٢ – لو ١٣ : ٣٤ .

.

.

.

ثانياً : يسوع يشرح في العشاء الفصحي معنى موته الذبائحي

طلب يسوع من تلاميذه ان يُعدّوا عشاءً فصحياً ليتناول الطعام معهم للمرة الأخيرة [١٣] ؛ يحمل هذا العشاء معنىً رمزياً ، فالمسيح يستبق آلامه ويشرح لتلاميذه معنى مصيره المأساوي . عبّر المعلّم الإلهي عن اقتناعه بموته الذبائحي من خلال كلمات تأسيس الإفخارستيا التي وصلت الينا عبر تقليدين مختلفين ؛ احتفظ متى ومرقس بتقليد فلسطيني في حين ان لوقا وبولس اوردا تقليداً آخر عرفته الجماعة المسيحية في انطاكيا .

هذه رسمة إزائية للتقليدين المشار اليهما :

مرقس (١٤ : ٢٤ = مت ٢٦ : ٢٨)	لوقا (٢٢ : ٢٠ = ١ كور ١١ : ٢٥)
هذا هو دمي ، دم العهد الجديد	هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي
الذي يراق عن كثيرين	الذي يراق عنكم
(+ " لمغفرة الخطايا " متى)	(+ " اصنعوا هذا لذكري " بولس)

١ . تقليد مرقس

تُذكّرنا عبارة : " دم العهد " بعهد الله الذي قطعه موسى مع الشعب ؛ بعد ان تلا موسى على مسامع الشعب كتاب العهد والتزم بنو اسرائيل بان يحفظوا احكام هذا العهد ، رشّ موسى الدم على الشعب قائلاً : هذا هو دم العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال [١٤] . يحمل الدم معنىً رمزياً فهو يرمز الى الحياة [١٥] ؛ في هذا الإطار نفهم ان تقدمة الذبيحة على المذبح ترمز الى عودة الحياة الى الله الحاضر في قدس الأقداس [١٦] .

يطابق مرقس بين خمر الكأس ودم يسوع لأن الإنجيلي الثاني يريد ان يشرح موت يسوع في إطار ذبائحي . حين قال يسوع : " هذا هو دمي ، دم العهد " كان يلمّح طبعاً الى ذاك العهد الذي قطعه موسى بالدم مع الله ؛ ولكن لا يجري الحديث الآن عن دم الذبائح ، بل سيسفك يسوع دمه الخاص وهذا يعني انه سيموت على الصليب لأجل كثيرين ؛ يحمل موت يسوع بُعداً شمولياً لأن موت انسان واحد يفدي الكثيرين .

---

١٣ - لو ٢٢ : ٨ .

١٤ – خر ٢٤ : ٨ .
١٥ – لا ١٧ : ١١ – ١٢ .
١٦ – نعمة الله الخوري ، " **العهد المختوم بالدم** " (بيبليا ١٠) ، ص ٤٢ .
.

٢ . تقليد لوقا

يرتبط هذا التقليد بنشيد العبد المتألم [١٧] بالرغم من وجود عبارة " العهد الجديد " التي تُذكّرنا بنبوءة ارميا [١٨]؛ يشدّد اشعيا على العبد الذي يعطي ذاته فالله " جعله عهداً للشعب " [١٩].

يطابق لوقا (بعكس مرقس) بين الكأس وبين العهد الجديد بالدم [٢٠] فيعتبر الإنجيلي الثالث ان موت يسوع يؤسّس عهد الله الجديد مع شعبه . ونجد عند لوقا (كما لاحظنا عند مرقس) موت انسان واحد (يسوع) في سبيل الجماعة ، فالعهد الذي قطعه يسوع مع التلاميذ يعطي الطابع الشمولي لموته .

أثناء عشاء يسوع الأخير مع تلاميذه ، شرح لهم المعنى الذبائحي لموته واوضح لهم ان مصيره المأساوي سينتهي بسفك دمه . ولكنّ يسوع يحثّ تلاميذه كي يتبعوه في الطريق ويلاقوا نفس المصير الذي يواجهه ؛ ولكي يصل يسوع الى هذا الهدف ، ادار عليهم كأساً وحيدة فشربوا منها جميعاً [٢١] ، مع العلم انه في العشاء الفصحي اليهودي كان كل واحد يشرب من كأسه الخاصة به . سيشرب يسوع كأس الآلام ، وسيعاني التلاميذ فيما بعد نفس المصير ، هكذا يستطيع يسوع ان يجلس على المائدة الإسكاتولوجية وسيتّكئ هناك معه تلاميذه الذين سيضحّون بدمهم في سبيل البشارة . هنا نفهم كلام يسوع : " اقول لكم : لا اشرب بعد اليوم من عصير الكرمة هذا ، حتى يجيء يوم اشربه معكم جديداً في ملكوت ابي " [٢٢] .

لم يتصوّر يسوع عشاءه الإسكاتولوجي دون مشاركة تلاميذه فالشركة بينه وبينهم ستظلّ قائمة ؛ بعد موت يسوع سيبقى التلاميذ وحدهم ، ولكنّهم سينضمّون اليه بعد ان يشربوا كأس الألم والشهادة وسيسيرون في نفس الطريق التي سلكها ليشتركوا معه على المائدة في الوليمة الإسكاتولوجية .

—
١٧ – اش ٥٢ – ٥٣ .
١٨ – ار ٣١ : ٣١ .
١٩ – اش ٤٩ : ٨ .

٢٠ – منعت الشريعة بشكل قاطع امكانية شرب الدم (تك ٩ : ٤ – ٦ ؛ لا ١٧ : ١٠ – ١٤ ؛ تث ١٢ : ١٦ ، ٢٣ – ٢٥) .

٢١ – لو ٢٢ : ١٧ .

٢٢ – مت ٢٦ : ٢٩ .

.

ثالثاً : يسوع يواجه الساعة – الكأس في بستان جتسيماني

بعد العشاء اصطحب يسوع تلاميذه ليلاً الى بستان جتسيماني [٢٣] ثمّ اختار بطرس ويعقوب ويوحنا لكي لا يكون وحده في صلاته [٢٤] ؛ اورد الإزائيون نزاع يسوع في جتسيماني بحسب اهتماماتهم اللاهوتية فتميّز كلّ إنجيليّ بإيراد بعض التفاصيل الخاصة به ، لذلك سندرس نزاع يسوع في البستان بالعودة الى الإزائيين الثلاثة في حين ان يوحنا يعرض نظرته الخاصة به التي تميّزه عن سائر الإنجيليين [٢٥] .

١ . يسوع وتلاميذه في جتسيماني

لا يمكننا ان نقرأ النزاع في جتسيماني دون ان نأخذ بعين الاعتبار التلاميذ ؛ لكنّ موقف ربنا يختلف عن موقفهم : هم يبقون ثابتين في مكانهم لا يتحرّكون في حين ان يسوع يتحرّك باستمرار بانفصاله عنهم للصلاة ثمّ بالعودة اليهم . في وسط هذه التنقّلات ، تظهر صلاة يسوع وتحريضه للتلاميذ ولومهم بسبب عدم سهرهم .

طلب يسوع من التلاميذ البقاء والسهر ولكنّه يعود ليجدهم نائمين ؛ لم يسهر التلاميذ بل تركوا يسوع في وحدة مؤلمة : هم حاضرون جسدياً لكنهم غائبون روحياً بسبب نومهم وهذا النوم يمثّل انفصال التلاميذ عن المعلّم .

واجه يسوع المجرّب في بداية حياته العلنية [٢٦] ، وفي جتسيماني ، طلب من تلاميذه ان يصلّوا كي لا يقعوا في تجربة وهذا يكشف عن التلازم بين التجربة والصلاة ؛ صلّى يسوع وطلب من تلاميذه ان يصلّوا (لا ان يسهروا) لئلاّ يقعوا في تجربة . نلاحظ ان يسوع ، في جتسيماني ، لم يقع في التجربة لأنه كان في وضعية صلاة ، امّا التلاميذ فالتجربة تلازمهم لأنهم لم يصلّوا بل قطعوا الرباط بينهم وبين الآب .

---

٢٣ – مت ٢٦ : ٣٦ – ٤٦ ؛ مر ١٤ : ٣٢ – ٤٢ ؛ لو ٢٢ : ٣٩ – ٤٦ .

٢٤ – مت ٢٦ : ٣٧ .

٢٥ – يو ١٢ : ٢٠ . ٣٣ .

٢٦ – حاول المجرّب ان يبعده عن الله بتجارب ثلاث : الأولى هي تجربة على المستوى المادي (الخبز) والثانية على المستوى السياسي (السلطة على ممالك العالم) والثالثة على المستوى المسيحاني (القفز من اعلى الهيكل) ؛ انتصر يسوع على تجاربه ولم يستطع المجرّب ان يقطع الرباط الذي يجمع يسوع بالآب (لو ٤ : ١ – ١٣) .

.

٢ . يسوع والآب

نام التلاميذ وتركوا يسوع وحده ولكن يظهر شخص آخر في دعاء يسوع : " يا ابي إن امكن ان تعبر عني هذه الكأس " [٢٧] ؛ يصلّي يسوع الى الآب كي يُبعد عنه الكأس وهذا دليل على وجود تعارض بين إرادة يسوع وإرادة الآب . ينتهي التعارض بين الآب ويسوع بخضوع الآب وعبّر متى بوضوح عن هذا الخضوع في صلاة يسوع الثانية : " يا ابي إذا كان لا يمكن ان تعبر عني هذه الكأس إلا ان اشربها ، فلتكن مشيئتك " [٢٨] .

يستبدل مرقس احياناً الكأس [٢٩] بكلمة " الساعة " [٣٠] فيقترب من يوحنا الذي يشدّد في إنجيله على الساعة [٣١] دون ان يشير الى كأس الآلام . ان الساعة هي تصميم الله الخلاصي تجاه البشر ولن يتراجع الآب عن تحقيق ما قرّره سابقاً . يستطيع يسوع ، عند الإزائيين ، ان يسأل الآب كي تبتعد عنه هذه الساعة . الكأس لأنها ليست حاضرة بعد ، في حين ان يوحنا يعتبر انه من غير الممكن ابعاد هذه الساعة لأنها اتت وقد أكّد الإنجيلي الرابع هذا الأمر مراراً [٣٢] .

يقول يوحنا " يا ابي نجني من هذه الساعة " [٣٣] لا يصلي يسوع لتبتعد عنه الساعة بل هو يريد ان يجتاز سالماً الى الآب ؛ نجد عند يوحنا تعارضاً بين إرادة يسوع وإرادة الآب وقد وجد يسوع حلاً لهذا التعارض بطلب ايجابي للمساعدة والحضور في قلب الوحدة التي وّجد فيها يسوع بسبب الساعة .

—

٢٧ – مت ٢٦ : ٣٩ .

٢٨ – مت ٢٦ : ٤٢ .

٢٩ – اعتاد العهد القديم على استعمال صورة الكأس الإلهية الممدودة للخطأة (اش ٥١ : ١٧ ؛ ار ٢٥ : ١٥ ؛ مز ٧٥ : ٩) وانضمّ كتاب الرؤيا الى نفس التقليد (رؤ ١٤ : ١٠ ؛ ١٥ : ٧ ؛ ١٦ : ١٩) . غير ان العهد الجديد لا يستعمل الكأس في هذا الخط ؛ وبالفعل نادراً ما نجد الكأس في النصوص الإنجيلية وهي تظهر فقط

في الحوار مع ابني زبدى لتشير الى المصير المأساوي الموعود لهما (مت ٢٠ : ٢٢) ؛ وفي العشاء الأخير ترتبط الكأس بدم العهد (مت ٢٦ : ٢٧) او بالعهد الجديد بالدم (لو ٢٢ : ٢٠) .

٣٠ – مر ١٤ : ٣٥ .

٣١ – يو ١٣ : ١ ؛ ١٧ : ١ .

٣٢ – يو ١٢ : ٢٣ .

٣٣ – يو ١٢ : ٢٧ .

.

في بستان جتسيماني كانت نفس يسوع كئيبة حتى الموت ؛ يسمّي لوقا الصراع : " أغونيا " ليجعلنا في أجواء الصليب ، تعبّر اغونيا عن شعور بالحزن ووضعية المواجهة . يعتبر متى ومرقس ان يسوع يعبّرعن اضطرابه أمام الكأس الممدودة ويبقى الآب صامتاً ولا يستغيث صلاته وتبقى الكأس مُقدّمة امام يسوع ؛ غير ان لوقا يُضيف تفصيلاً خاصاً به فيقول : " جاء ملاك يشجعه في نزاعه ؟ " [٣٤] للإشارة الى ان الآب استغاث صلاة ابنه فارسل له الملاك ليساعده في جهاده ؛ ان الصلاة هي مستجابة عند لوقا وهذا ما لا نجده عند متى . نشير هنا الى ان يوحنا يلّمح الى استجابة الله لصلاة يسوع حين سُمع صوت من السماء يقول : " قد مجدّت وأمجّد ايضاً " [٣٥] .

باختصار نلاحظ ان الإنجيليين فهموا نزاع يسوع في جتسيماني بطرق متنوعة ؛ ففي حين شدّد يوحنا على الكريستولوجيا التي تسلّط الضوء على موقف يسوع امام الساعة ، نلاحظ ان لوقا يوجّه انظارنا نحو اهتمام تطبيقي (parénétique) يوجّه حياة التلميذ اليومية مع العلم ان متى ومرقس يعرضان الاهتمامين في آنٍ معاً .

يعلّمنا الاهتمام الكريستولوجي [٣٦] ان يسوع ، حين شعر بدنو ساعة الآلام ، توسّل الى الآب كي يُجيز عنه الكأس التي سيشربها غير انه تطابق في النهاية مع إرادة الآب ؛ هذه القراءة الكريستولوجية تجعلنا نفهم موقف يسوع الذي يبقى اميناً للصلاة اي في إقامة علاقة دائمة مع الله حتى وإن كان الموت وشيكاً . بحسب الاهتمام الكريستولوجي يتسلّط الضوء على يسوع وحده في حين ان التلاميذ هم نائمون . يشبه يسوع البار الذي يجب ان يتألّم بالصراخ [٣٧] وهو ابن الله الذي يقود ذلك الاختبار الى الكمال .

أمّا الاهتمام التطبيقي فهو يتعلّق بالمُميّزين الثلاثة المدعوين للسهر والصلاة لأن التجربة تغمرهم ؛ هذا التقليد يوجّه تصرّف التلميذ الذي يجب ان يتشبّه بمعلّمه . ان ارادة الله تتناقض احياناً مع رغبة التلميذ في تصرّفه في حياته اليومية وفي هذه الحالة يجب ان تلتقي صلاة التلميذ مع صلاة يسوع نظراً للتطابق بين التلميذ ومعلّمه .

—

٣٤ – لو ٢٢ : ٤٣ .

٣٥ – يو ١٢ : ٢٨ .

٣٦ – نجد صدىً لهذا الاهتمام الكريستولوجي في الرسالة الى العبرانيين حيث يطبّق كاتب الرسالة خبرة البار المتألم على المسيح الكاهن الأكبر بقوله : " هو الذي في ايام حياته البشرية رفع الصلوات والتضرّعات بصراخ شديد ودموع الى الله القادر ان يخلّصه من الموت ، فاستجاب له لتقواه ، وتعلّم الطاعة ، وهو الابن ، بما عاناه من الألم " (عب ٥ : ٧ – ٨) .

٣٧ – ٣٩ : ١٣ .

.

رابعاً : كلمات يسوع الأخيرة على الصليب

حضّر اختبار جتسيماني القارئ ليفهم معنى كلمات يسوع التي قالها على الصليب ؛ لن نستطيع ان نتناول في هذه الدراسة مغفرة يسوع لصالبيه [٣٨] او الى دعوته اللص اليمين كي يكون معه في الفردوس [٣٩] ؛ لن نتطرّق الى حوار يسوع مع التلميذ الحبيب بشأن أمه مريم [٤٠] ولن نتوقّف على الأحداث السابقة للصلب مثل اعتقال يسوع وإهانته وطريقة صلبه .

سيسترعي اهتمامنا كلام يسوع على الصليب : " إلهي الهي لماذا تركتني ؟ " [٤١] وسنهتم بقول يسوع : " يا ابتي في يديك استودع روحي " [٤٢] وسنلقي الضوء على إعلان يسوع : " انا عطشان " [٤٣] الذي ذكره يوحنا فانهى حادثة الصلب بإيراد كلمة يسوع : " لقد تمّ كلّ شيء " .

١ . إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ (مر ١٥ : ٣٤)

يخبرنا مرقس انّ أحداثاً كثيرة رافقت صلب يسوع [٤٤] ولكنه يكتفي بإيراد صراخ يسوع من أعلى الصليب : " إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ " ؛ باستثناء هذا الصراخ ، لا نسمع يسوع يقول شيئاً على الصليب . هنا نتساءل : هل تنتهي حياة يسوع بسؤال ؟ هل جهل يسوع معنى حياته التي يجب ان يُتوّجها الصليب ؟ ما هو معنى صراخ يسوع الأخير الذي نجده عند متى ومرقس ؟

أ . يسوع يموت على الصليب في وحدة قاتلة

يعلن يسوع بهذا الصراخ ان الله تركه ولم يأتِ الى نجدة ابنه في الصعوبة القصوى ؛ بالرغم من صلاة يسوع المؤلمة في جتسيماني ، ترك الله الإبن بين يدي أعدائه فاسلمه خصومه للموت وأصابته الآلام وتركه التلاميذ . يعتبر مرقس ان يسوع اختبر ذروة الألم في

---

٣٨ – لو ٢٣ : ٣٤ .

٣٩ – لو ٢٣ : ٤٣ .
٤٠ – يو ١٩ : ٢٦ – ٢٧ .
٤١ – مر ١٥ : ٣٤ = مت ٢٧ : ٤٦ .
٤٢ – لو ٢٣ : ٤٦ .
٤٣ – يو ١٩ : ٢٨ – ٣٠ .
٤٤ – مر ١٥ : ٢١ – ٤٢ .

هذه اللحظة الأخيرة . في هذا الإطار يذكر متى استهزاء رؤساء الكهنة ومعلمي الشريعة والشيوخ الذين قالوا : " توكّل على الله فلينقذه الآن إن كان راضياً عنه " [٤٥] .

إنها المرة الوحيدة في الأناجيل التي ينادي بها يسوع الله بكلمة : " إلهي " بدل " ايها الآب " ؛ تجري الأمور وكأنه في الساعة الأخيرة أفسحت خبرة البنوة المجال أمام خبرة الخلق .

ان صراخ يسوع هو نداء يُعلن وجود الله الذي يبدو ظاهرياً انه غائب ؛ لا تزال العلاقة قائمة بين يسوع والله بالرغم من انّ هذا الأخير يتجاهل نداء يسوع . مات يسوع وهو يطرح سؤالاً : إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ لا نجد جواباً على هذا السؤال إلاّ في كلام قائد المئة الذي أعلن . ليس قبل موت يسوع بل بعده . : " في الحقيقة كان هذا ابن الله " [٤٦] .

إنّ صمت الله أمام آلام ابنه لا يعني انه يتجاهل الأحداث ، فالله لم يتدخّل ليحمي ابنه من عنف الصالبين لأنه يريد ان يترك لهم الحرية . ان حياة يسوع العلنية دفعته حتماً ليقاسي آلام الصلب ، كما قلنا أعلاه ؛ لن يتراجع يسوع عن احتمال آلام الصليب ولن يُغيّر الله تصميمه في اللحظة الأخيرة ، ولكنّ الله يحتفظ لنفسه الحق بالتصرّف بعد موت يسوع فيقيمه من بين الأموات .

ب . صراخ يسوع هو استشهاد بالمزمور

نجد صدىً لصراخ يسوع في بداية المزمور ٢٢ حيث يعرض الكاتب حالة الإحباط التي يتخبّط بها ، ولكنّ صاحب المزمور يغيّر رأيه في النهاية فيعلن قائلاً : " لم يزدرِ (الله) بؤس البائس ولم يستقبحه ولا حجب عنه وجهه وإذا صرخ اليه كان سميعاً " [٤٧] .

من المحتمل ان يكون يسوع استشهد ببداية المزمور وترك للسامعين إمكانية تلاوة نهاية المزمور التي تشدّد على استماع الله لصلاة البائس إذ ان نهاية المزمور تشدّد على ثقة جذرية بالله . إذا كان هذا الاعتقاد صحيحاً ، نفهم ان صراخ يسوع ، الذي يستشهد بالمزمور ، لا يُعلن

فقدان الأمل بمساعدة الله بل هو متيقّن من تدخّل الله النهائي ليساعد البائس فهو يسمع صراخ المظلومين .

—

٤٥ – مت ٢٧ : ٤٣ .

٤٦ – مر ١٥ : ٣٩ .

٤٧ – مز ٢٢ : ٢٥ .

.

ج . صراخ يسوع وعودة ايليا

اورد مرقس كلمات يسوع الآرامية بقوله : " ايلوي ايلوي لما شبقتاني " [٤٨] وهكذا فعل متى [٤٩] . ظهرت حديثاً محاولة لحلّ معضلة تفسير صراخ يسوع الأخير الذي بقي بدون جواب ؛ فهم الحاضرون من كلام يسوع انه يدعو ايليا لنصرته ، وبالفعل نجد ، في الآرامية ، التباساً بين كلمة " ايلي " التي تعني : " الهي " وبين كلمة " ايليا " التي تشير الى النبي . السؤال المطروح هنا : كيف حدث الالتباس بين " ايلوي " وبين " ايليا " ؟

استناداً الى فهم شاهدي احداث الصلب لكلمات يسوع ، يعتبر هارالد سهلين [٥٠] وتبعه فيما بعد تورليف بومان [٥١] ان الرب قال على الصليب : ايليَ آتَ (= إلهي انتَ او انت إلهي) وهذا يعني ان يسوع ، ساعة الموت ، يعلن ثقته التامة بالله وارتباطه الدائم به . ولكنّ الحاضرين فهموا هذا الكلام بطريقة مغلوطة فظنوا انه يقول : ايليا تَ (= ايليا تعالَ او تعالَ يا ايليا) ؛ نجد كلمة مشابهة لها في نهاية سفر الرؤيا " ماراناتا = ربنا تعالَ او تعالَ يا رب) .

اننا نلاحظ ان الإعلان : ايلي تَا (= إلهي انتَ) يرد مراراً في الكتاب المقدس ؛ فالمزمور ٢٢ الذي يبدأ بصراخ يسوع : " إلهي إلهي لماذا تركتني " ، يتابع فيقول : " عليك من الرحم القيتُ ومن بطن أمي انتَ إلهي " [٥٢] .

كما ان المزمور ٣١ ، الذي استوحى منه يسوع صلاته : " في يديك استودع روحي " يعلن ايضاً : " أمّا انا فعليك توكّلت يا رب قلت إنك انت إلهي " [٥٣] . ونقول نفس الأمر في شأن المزمور ٦٣ [٥٤] الذي اورده يسوع في إنجيل يوحنا فقال : " انا عطشان " ؛ هذا المزمور يبدأ بإعلان واضح : " اللهمّ انت الهي اليك بكرتُ اليك ظمأت نفسي وتاق جسدي " .

نلاحظ إذاً انّ صراخ يسوع : ايليَ تَا = إلهي انت ، هو حاضر في المزامير التي استشهد بها الإنجيليون الثلاثة : مرقس ، لوقا ويوحنا في معرض حديثهم عن صلب يسوع ؛ هذا يدفعنا الى الاعتقاد ان يسوع ، حين قال : ايليَ تَا ، عبّر عن ثقته بالله في ساعة الشدة

—

٤٨ – مر ١٥ : ٣٤ .

٤٩ – مت ٢٧ : ٤٦ .

50 – H. SAHLIN, dans *Biblica* 33 (1952), p. 53 – 66 .

51 – T. BOMAN, dans *Studia Theologica,* 17 (1963), p. 103 – 119 .

٥٢ – مز ٢٢ : ١١ .

٥٣ – مز ٣١ : ١٥ .

٥٤ – مز٦٣ : ٢ ؛ رج يو ١٩ : ٢٨ .

والموت . لهذا لا يمكننا ان نعتبر ان الصرخة : " الهي إلهي لماذا تركتني " تعبّر عن يأس يسوع لأن الله تركه في وقت الشدة ، بل بالعكس هي تؤكّد ان يسوع حافظ على امانته للّه حتى اللحظة الأخيرة وظلّ في حوارٍ معه حتى اسلم الروح .

٢ . يا ابي ، في يديك استودع روحي (لو ٢٣ : ٤٦)

هذه الصلاة الحميمة ، الغائبة عن إنجيل متى ومرقس ، تختتم الصراع الذي مرّ به يسوع وهي تتويج لصلاة يسوع . بعد التجارب التي تعرّض لها يسوع في بداية رسالته ، غاب الشيطان ليظهر في الحين المحدّد [٥٥] أي في ساعة الآلام ؛ ها هو يدخل مسرح الأحداث فيُجرّب يهوذا الإسخريوطي ويحاول ان يتغلّب على يسوع . لكنّ يسوع انتصر عليه لأن الملاك ساعده في وقت الشدة ، لذلك قال يسوع صلاته الحميمة : " يا ابي في يديك استودع روحي " فاعطى للجميع المثال الذي يجب ان يتشبّهوا به . يظهر يسوع في إنجيل لوقا وهو يحمل الحنان والرحمة للناس ؛ قَبِل يهوذا الخائن [٥٦] وشفى أذن عبد رئيس الكهنة [٥٧] ونظر الى بطرس الذي انكره ثلاثاً [٥٨] ؛ بقي صامتاً أمام هيرودس [٥٩] ولفت نظر نساء اورشليم الى مصيرهنّ [٦٠] وصلّى لأجل صالبيه [٦١] واعداً بملكوته اللص اليمين [٦٢] وفي النهاية سلّم روحه في يد الآب .

هكذا يكون يسوع مثالاً ونمطاً للبار المتألم وهو ضحيّة للعنف وقد قابله بنعومة وعذوبة . قال المزمور : في يديك استودع روحي ، لكنّ يسوع شخصن المزمور حين أضاف على بدايته كلمة : ابي . واهتمّ لوقا كثيراً بهذا القول الذي سنجده على لسان اسطفانوس اول الشهداء الذي اودع روحه في يدي الرب يسوع [٦٣] ؛ استعاد اسطفانوس ، الشهيد الأول ، آخر كلمات يسوع على الصليب فصفح لراجميه .

—

٥٥ – لو ٤ : ١٣ .

٥٦ – لو ٢٢ : ٤٨ .

٥٧ – لو ٢٢ : ٥١ .

٥٨ – لو ٢٢ : ٦١ .
٥٩ – لو ٢٣ : ٩ .
٦٠ – لو ٢٣ : ٢٨ – ٣١ .
٦١ – لو ٢٣ : ٣٤ .
٦٢ – لو ٢٣ : ٤٣ .
٦٣ – اع ٧ : ٥٩ – ٦٠ .
.

انتهى صراع يسوع بصلاة ثقة يرفعها البار وهو مقتنع بانتصار الله . بدأ يسوع حياته مُصلّياً وانهاها بالصلاة وهذا ما يُميّز الإنجيل الثالث .

٣ . انا عطشان (يو ١٩ : ٢٨)

يدعو يوحنا قارئ إنجيله ليتعرّف على المسيح الذي سار في طريق آلامه بقدرة وشجاعة ، فالمسيح المرفوع على الصليب هو المسيح المنتصر والمّمجّد . يتضمن المشهد الأخير من حياة يسوع ، بحسب إنجيل يوحنا ، قول يسوع " انا عطشان " وأتبع المصلوب هذا القول بعبارة : لقد تمّ " . وكلا القولين يتمّمان الكتب .

أ . انا عطشان

لا يطلب يسوع الماء ليروي عطشه بعد الآلام المُبرّحة التي عانى منها فالعطش الذي يجري الحديث عنه هو اشتياق للقاء الآب كما يقول صاحب المزمور : " ظمأت نفسي اليك يا الله [٦٤] ؛ العطش ، في هذه المواضع ، هو توق لسماع كلمة الله . نتذكّر هنا ان يسوع طلب من السامرية ماء ليشرب ولكن الحوار بينهما يبرهن ان يسوع لم يكن عطشان لأنه وعد تلك المرأة بان يعطيها الماء الحي الذي يتدفّق حياة ابدية [٦٥] ، وذاك الماء الحي هو الروح القدس الموعود به بعد القيامة [٦٦] .

اعلن يسوع ، في بداية حياته العلنية ، ان طعامه هو ان يعمل مشيئة من ارسله [٦٧] وفي نهاية حياته يُعبّر عطش يسوع عن رغبته الحادة لتتميم إرادة الله حتى النفَس الأخير .

يربط يوحنا قول يسوع : " انا عطشان " بتتميم الكتاب الذي يقول : " لعطشي اسقوني خلاً " [٦٨] ؛ هنا نتذكّر انه حين امسك الجنود يسوع قال لبطرس : " ألا اشرب الكأس التي أعطاني إياها الآب " [٦٩] .

٦٤ – مز ٦٣ : ٢ ؛ مز ١٤٣ : ٦ ؛ عا ٨ : ١١ – ١٣ .
٦٥ – يو ٤ : ١٠ – ١٤ .
٦٦ – يو ٧ : ٣٧ – ٣٩ .
٦٧ – ٤ : ٣٤ .
٦٨ – مز ٦٩ : ٢٢ .
٦٩ – يو ١٨ : ١١ .
.

حين قال يسوع : " انا عطشان " ، نفّذ الجنود طلب يسوع وقدّموا له الخلّ [٧٠] كي يتحقّق المزمور ٦٩ بحسب رغبة يسوع . لكنّ واقع الحال يختلف عند الإزائيّين ، فالجنود قدّموا الخل ليسوع كي يستهزئوا به لأنهم ظنّوا انه يدعو ايليا ليأتي لنصرته ؛ بعد ان سقوه الخل قال احد الجنود " إنتظر لنرى هل يجيء ايليا ليخلّصه " [٧١] .

ب . لقد تمّ كلّ شيء

هذا هو القول الأخير الذي تلفّظ به يسوع قبل ان اسلم الروح في إنجيل يوحنا [٧٢] ؛ لا يُوضح لنا يسوع هوية الذي تمّم الرسالة بل يوجّه انتباهنا الى تصميم الله الخلاصي الذي وصل الى نهايته . هذا الواقع يختلف عن كلام بولس في ظروف مشابهة حين شعر ان ساعة الموت قد دنت فقال : " اتممت سعيي وحفظت ايماني " [٧٣] ؛ يوضح بولس صراحة انه اتمم الرسالة الموكولة اليه في حين ان يسوع لا يشير الى عمله الشخصي في تحقيق تصميم الله .

أعلن يسوع مراراً انه يريد ان يتمّم عمل الآب [٧٤] وأنجز المهمة بشكل كامل واعطى الناس موهبة الشركة مع الله . ان قول يسوع : " لقد تمّ " هو تتويج لمسيرة الابن الذي سار بشكل كامل نحو الآب وهذا القول هو إعلان انتصارلأن يسوع نجح في إتمام المهمة التي اوكلها اليه الآب الذي ارسله . تنبَأت الكتب قديماً عن تحقيق خلاص الله بين البشر وها هو يسوع يُعلن من اعلى الصليب تتميم النبوءات .

خاتمة

منذ بداية رسالته العلنية وحتى نهايتها ، توجّه يسوع نحو آلامه برؤية واضحة ومعرفة مُسبَقة لنهاية الأحداث ؛ إنّ آلام الصلب هي حتماً مرحلة دقيقة وحسّاسة في حياة يسوع الإنسان ، ولكنّ الصليب هو طريق الى الحياة فيجب اجتياز الموت للوصول الى مجد القيامة . نشعر بانتصار يسوع على الصليب في خبر الالام الذي عرضه يوحنا الإنجيلي ، فقد ـــ

٧٠ – ينفرد يوحنا عن الإنجيليين فيشير الى إناء من الخل موضوع عند الصليب بالصدفة فالجند غمسوا اسفنجة في الخل ووضعوها على زوفى وقدّموا الخل الى يسوع ؛ يقول متى ومرقس ان احد الجنود وضع الإسفنجة على قصبة (مت ٢٧ : ٤٨ ؛ مر ١٥ : ٣٦) .

٧١ – مت ٢٧ : ٤٩ .

٧٢ – يو ١٩ : ٣٠ .

٧٣ – ٢ تم ٤ : ٧ .

٧٤ – يو ٤ : ٣٤ ؛ ١٧ : ٤ .

تمجّد المسيح ساعة عُلِّق على الصليب ؛ هذا الارتفاع على الصليب هو ايضاً ارتفاع في المجد ونحن نشعر بالقيامة ساعة رفع الجنود الرومان صليب يسوع عن الأرض .

هذا هو معنى الصراع بين بيلاطوس واليهود : هو يسمح لهم بان يقتلوه حسب شريعتهم ، أي رجماً في حين انهم يُصرّون على موته بحسب الشريعة الرومانية ، أي صلباً [٧٥] . بارتفاع يسوع على الصليب تمّت النبوءة التي اعلنها سابقاً انه سيجذب الناس اليه متى ارتفع .

ما هو موقفنا نحن المؤمنين من آلام يسوع ؟ لن نقف بالبكاء والنحيب لنتذكّر الالام المُبرّحة التي عاناها ربنا في تلك المرحلة الحاسمة من حياته ؛ واجه المسيح المتألم قساوة الناس الأشرار بتسليم تام لمشيئة الله وخضوع لأحكامه . التجارب عديدة في حياتنا والصعوبات كثيرة لكن يمكننا ان نتجاوزها حين نفهم المعنى الحقيقي لآلام يسوع ؛ لن تُبعدنا الاضطهادات او مباهج الدنيا عن التوجّه الى الآب السماوي فهو غاية وجودنا كما انّ حياتنا تأخذ معناها الحقيقي على ضوء آلامه وموته .

---

٧٥ – يو ١٨ : ٢٨ – ٣٢ .

"يسوع أمام آلامه وموته" ، المجلة الكهنوتية ٢ ، (لبنان ٢٠٠٣)، ص ١٤٣ – ١٥٦ .